

محاضرات
في
الأدب الجزائري بلغات أخرى

المستوى: ماستر 2
تخصص : أدب جزائري

إعداد:
أ.د. فيصل الأحمر

المحاضرة الأولى:

الأدب الجزائري أم الآداب الجزائرية¹؟

(صراع لغوي أم تعددية ثقافية؟)

ما الأدب الجزائري؟

قد يبدو هذا السؤال تعليميا يختزن إجابة منهجية لا تخرج عن الدرس الأكاديمي من أنه الأدب الذي كتب عن الجزائر أو في الجزائر على أرضها. وقد تكون الداللتان منقوصتين من فعل النسبة لعموم المعني حيث أن هناك ما كتب عن الجزائر وما كتب عليها لكنه ليس أدبا جزائريا بل الأدب الجزائري تحديدا هو تلك الخصوصية التي ينتسب إليها كاتب ما ورث صفة "الجزائري" عرقا وأرضا وكتب عن وطنه لأنه مواطن بالفطرة، إذا الأدب الجزائري نسبة إلى الكاتب وما يقوم في قلمه مرجعا محددًا جغرافيا وعرقيا، وليس كل ما التصق بها.

قد يبدو في هذا التحديد خلل أو نقص، لكن ذلك حد لا يقصد به البيان عن مكنون الأدب بقدر ما يرام به بيان هوية الأدب. وذلك مبحث معقد نحتاج فيه إلى تبیین نسبة الجزائري ذاته وما معناها؟... هل يمكننا تقطيع صفة ج/ز/ا/ي/ر/ي لاستخراج الأدق والأكثر دلالة؟

إن لفظة 'جزائري' التي تحيل على أكثر من توجه، بل أكثر من إشكالية:

1- أدب جزائري شفاهي مسكوت عنه إثنيا تحديدا

2- أدب جزائري مكتوب بالعربية

3- أدب جزائري مكتوب بالفرنسية .

وهنا نتساءل ما محل الإقليمية 'جزائري' باللاحق المعرفي الثقافي اللغوي 'عربي' فرنسي' فاللغة لا تمثل هوية الأدب بقدر ما تمثل صراعا لتركيبة الأدب الغالبة كممثل لواجهة منظورية للسلطة، حيث أصبح المدلول اللغوي يختزن تسنينا كولونياليا للاكتساح الإمبراطوري (الاستعماري) للدالتين الاستعمارييتين للجغرافيا 'عروبي' فرنسي' حيث أصبح الجزائري تابعا سخييا في الثقافة أنتج أدبيا مفرغا من اللسان مغلوبا في التخاطب خارجيا وداخليا، وهذا ما يفعله الاستعمار دائما. لا نتحدث هنا عن القيمة التعبيرية بقدر ما نتحدث عن القيمة التداولية للغة في المجتمع وتلك التركيبيية المزدوجة للسلطة التي انتجت أدبيا تابعا في بعده الهوي خارج البنية الثقافية، يعيش بلسانه خارج الثقافة . فالبعض يري في اللغة وسيلة لتمرير الجزائرية لكنه في مستوى الممارسة/الكتابة يتحول إلى 'قومي' أو 'حركي' أو 'مستلب' أو 'رحعي'... الخ الخ وهي كلها صفات وهويات جامبية تلتصق بصفة 'جزائري'.

وكل هذه الأبعاد انتهت إلى استبعاد مكون جوهرى من الدلالة الحقيقية على ما هو جزائري: 'الأدب الامازيغي'؛ هذا المكون الذي اعتصم بالجمال الثقافية باعتبارها شكلا من أشكال مقاومة السلطان في التاريخ الجزائري القديم والحديث. هل هذا المجزوء تابع للتحديد "أدب جزائري" أم سابق عليه أم هو رهين تلك المؤسساتية التي دفعت به إلى الهامش في ظل انتشار ثقافة المركز الكولنيالية العروبية أو الفرنسية؟

بل ما معنى أن يكون الأدب ناطقا عن الثقافة بأكثر من لغة (أي بأكثر من انتماء ثقافي)؟... هي في الحقيقة حالة في التسمية والمفهوم تشبه الوشوم المنضوية على جسد الثقافة الجزائرية بعضها واضح وبعضها باهت إلى درجة التداخل والغموض واللافهم الفضي على الصراع كما رأينا ونرى منذ عقود.

¹ عن مقال لدكتور اليامين بن تومي. جريدة "القدس العربي" اللندنية.

وهاهنا سنفتح بعض الجروح متسائلين: لماذا لم تمارس تلك اللغات بمحمولاتها الثقافية أثرها في البنية العقلية للمجتمع: فالصفات "عربي" و " أمازيغي" و "فرنسي" انتهت إلى بناء إنسان قلق مضطرب لا يجد راحته هنا ولا هناك.

إذا عدنا على التاريخ البعيد سوف نجد ملامح لتسميات أكثر عمقا وتجذرا في اللاوعي التاريخي والثقافي للجزائر. ونجد سؤالا ملحا: مامعني الأدب اللاتيني في الجزائري؟ وكيف نتعامل مع نص "الحمار الذهبي" للوكيوس أبوليوس؟ ما أثر الأدب التركي في المرحلة العثمانية والتركية عندنا؟ و ما مدى تجذر الأدب الأمازيغي؟ .. ما معنى أن نجد على نفس المسرح: لوكيوس أبوليوس، سرفانتس، ألبير كامي، فرانس فانون، مولود معمري، محمد ديب، الطاهر وطار، الحبيب السايح، كاتب ياسين، الطاهر جاووت، جاك دريدا، محمد مفلح؟

الغالب هو أن صفة 'جزائري' تعبر عن المتعدد، عن الاختلاف داخل الطبقة، عن تلك الطيات المعيشة والمتحورة من عهد ماسينسا إلى زمننا. إنه فعل تحرير لملمحة "المتعدد" لأننا لم نكن واحدا أبدا فنحن مستلبون بمرجعيات عقيدية وإثنية مترتبة متراسة اثرت تجاربنا التاريخية. إنها حالة من التناسخ والحلول والتنقل والرحلة، فالجزائر تحقق أدبيا وجماليا شعرية لا متواصلة مع مرجع محدد. إنها اللاتحديد في الممكن لخلق أدب كوني يكون أكثر انفتاحا على أكثر من لسان وأكثر من تجربة ؛ تجربة الإنسان المتوسطي. فالأدب الجزائري منطقة للعبور لا يستقر دائم البحث في رحالة الإنسية المتعددة، فالجزائر أكثر من أرض وأكثر من أدب فهي تراكم في الأجناس والألسنة .

الأدب الجزائري قبل الإسلام الآمازيغ والثقافة اللاتينية

تمهيد:

عرفت الممالك الآمازيغية القديمة في شمال أفريقيا نهضة ثقافية وفكرية ودينية نشيطة بفضل أبنائها الذين كرسوا كل جهودهم من أجل خدمة الهوية الآمازيغية ولغتها وحضارتها، والوقوف ضد الغزاة والمحتلين الرومان والوندال والبيزنطيين الذين استهدفوا السيطرة على شعوب تامازغا وتقسيم الآمازيغيين إلى ليببيين ونوميديين وموريين أو تقسيم البلاد إلى أفريقيا ونوميديا وموريتانيا، والتي بدورها تم تقسيمها إلى موريتانيا القيصرية (الجزائر) وموريتانيا الطنجية (المغرب) من أجل استغلال ثروات هذه البلدان وإذلال شعوبها وتركيعها ومسح هويتها. بيد أن الآمازيغيين حاربوا هؤلاء المستعمرين القساة الطامعين وصدوهم بقوة وصمود. وقد أظهر كل ماسينيسا ويوغورطة وتاكفاريناس ودوناتوس الجزائريون جميعا شجاعة نادرة وبسالة كبيرة في التصدي والمقاومة والمواجهة مازال التاريخ يشهد بها ولها.

وسنحاول في هذه الدراسة المتواضعة أن نركز على بعض الجوانب الثقافية والأدبية (والدينية والعلمية أيضا بسبب التواشج والتداخل الذي كان قديما بين هذه المستويات في عالم الكتابة).

1- الملك يوبا الثاني

يعتبر يوبا أو جوبا الثاني من كبار العلماء والمتقنين الآمازيغ إذ كان يمتاز بسعة العلم والاطلاع، وكان كثير السفر والبحث والتجوال وموسوعي المعارف والفنون. وقد ألف كثيرا من الكتب والبحوث والمصنفات ولكنها لم تصل إلينا سليمة، بل ثمة إشارات إليها في كتب المؤرخين ميثوثة هنا وهناك... هذا، وقد تمكن يوبا الثاني ومن بعده ابنه بطليموس من توحيد القبائل الموريتانية في إطار مملكة مورية، ويعني هذا أن يوبا الثاني وحد القبائل الآمازيغية في المغرب واتخذ عاصمتين لمنطقة نفوذه "شرشال" في الجزائر أو ما يسمى بـ"قيصرية" إرضاء للروم و"وليلي" عاصمة له في المغرب. وأنشأ حكما ديمقراطيا نيايبا تمثليا، وشجع الزراعة والصناعة والتجارة. كما اهتم بالجانب الثقافي والعلمي والفكري، فأعد خزانة ضخمة جمع فيها أنواعا من الكتب والوثائق العلمية والتاريخية، واستقطب نحو عاصمته كبار العلماء والأطباء من اليونان والرومان، وأمر بجمع النباتات الطبية والأعشاب. وشارك في رحلات علمية استكشافية داخل جبال الأطلس ونحو جزر كناريا الحالية. وجمع رحلاته العلمية وكشوفاته الطبيعية والجغرافية وأحاديثه عن المغرب في ثلاثة مجلدات ضخمة سميت "ليبيا"، ومن أحسن ما تضمنته ليبيا قصة "الأسد الحقود" التي مازالت تروى من قبل الجدات في عدة مناطق من المغرب الكبير باللغة البربرية. ويقول محمد شفيق عن يوبا الثاني بأنه كان يكتب "باليونانية في التاريخ والجغرافيا والفلسفة والأدب وفقه اللغة المقارن، فتعجب من نبوغه المؤرخ "فلوتاركخوس Plutarkhos" ومن كونه "بربريا نوميديا ومن أكثر الأدباء ظرفا ورهافة حس"... ونصب له الأثينيون تمثالا في أحد مراكزهم الثقافية... تقديرا لكفاءته الفكرية. وقد نقل عنه علماء العصر القديم كثيرا، وحسده معاصروه منهم ونفوا عنه نبوغه، بصفته بربريا barbarus، وهو اتجاه كرسه الاستعمار حديثا لأنه يخدم أفكاره التحقيرية. فهم يرون أن "الأهالي" Les indigènes لا يمكن أن يكونوا إلا "أهالي" في الماضي والحاضر على السواء، بما أشربته الكلمة في لغتهم إذاك من معاني الاحتقار.

و إذا انتقلنا إلى مؤلفات يوبا الثاني فهي كثيرة لا يمكن عدها أو حصرها، ومنها: "تاريخ بلاد العرب" الذي وضعه لتعليم يوليوس قيصر إمبراطور الرومان، و"آثار آشور" وقد كتبه بعد أن رأى بلاد الأشوريين واستمتع بحضارتهم وثقافة بلاد الهلال الخصيب، كما كتب عن "آثار الرومان القديمة"، و"تاريخ المسارح" الذي تحدث فيه عن الرقص وآلاته الموسيقية ومخترعي هذه الفنون، وكتب "تاريخ الرسم والرسامين"، وكتاب

"منابع النيل" بله عن كتاب "النحو" و"النبات".

ويظهر لنا هذا الكم الهائل من الكتب أن يوبا الثاني كان من المثقفين الأمازيغيين الكبار الذين تعتمد عليهم الإمبراطورية الرومانية في التكوين والتأطير والتدريس وجمع المادة المعرفية المتنوعة التي تتمثل في الجغرافيا والحفريات واللغويات والفنون والتاريخ والطبيعيات... وكانت ليوبا الثاني مكانة كبيرة في المجتمع الروماني مادام قد حظي بتدريس يوليوس قيصر الروماني وسهر على تثقيفه وتعليمه. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان يوبا الثاني يهتم بتجميل الحواضر وتزيينها على غرار الحواضر الرومانية تقليداً بفن عمارتها وهندسة مبانيها وجمال مدنها...

حكم موريتانيا تحت مراقبة روما وبالنيابة عنها طوال الفترة بين 25 قبل الميلاد و23 قبل الميلاد قام خلالها بتمهيد السبيل أمام الحكم الروماني. وعلى الرغم من ذلك، فقد خدم يوبا الثاني الثقافة الأمازيغية حتى أصبح نموذجاً يحتذى به في البحث الجغرافي ومجال الاستكشاف الطبيعي والتثقيب الميداني.

2- الروائي أبولويس أو أفولاي المداوروشي

نشأ لوكيوس أبولويس أو أبولويس المداوروشي (المداوروشي، بالتعبير الجزائري اليوم) في أسرة أرستقراطية في مدينة مداوروش بالجزائر قرب سوق هراس سنة 125م. إذ كان أبوه أحد الحاكمين الاثنين في أوائل القرن الثاني في هذه المنطقة، و كان أبولويس أشهر كتاب وشعراء هذا العهد. لقد درس هذا الأديب الأمازيغي الأصل بقرطاج، حيث أخذ من كل الفنون بطرف، وكانت هذه المدينة الإفريقية عاصمة فكرية وسياسية في آن معا، و نبغ فيها هذا الأديب، وتخصص في المسرح و نبغ فيه إذ كان القرطاجيون يهتفون به في المسرح، و كان يقول لهم: "إني لا أرى في مدينتكم إلا رجالا كرعوا من مناهل الثقافة، وتبحروا في جميع العلوم: أخذوا العلم صغارا، و تحلوا به شبانا ودرسوه شيوخا، إن قرطاج لهي المدرسة المقدسة في مقاطعتنا، و هي عروس الشعر في إفريقية، و هي أخيرا، ملهمة الطبقة التي تلبس الحلة". وقد تابع أبولويس دراساته العليا في اليونان (أثينا) وإيطاليا و آسيا الصغرى، و لقد أعجب بالفلسفة السوفسطائية، و الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، والفلسفات ذات الطبيعة الصوفية الروحانية التي تضمن للمؤمنين حياة أبدية سعيدة.

و بعد عودته الى بلده، اتهم هناك بممارسة السحر، فدافع عن نفسه بصلافة، و ألف في الموضوع كتابا عنوانه: "في السحر Magicae... و سبب هذه التهمة أنه صادف أثناء إقامته في طرابلس أن وقع في مغامرة غريبة،" ذلك أنه ما أن تزوج من أم أحد أصدقائه، و كانت إلى ذلك الوقت ممتنعة امتناعا شديدا من الزواج ثانية، حتى اتهم بأنه سحرها، و قد أخذ أحد المحامين على نفسه، أن يقيم الدليل على أن يدافع عن نفسه دفاعا رائعا. لم يكن كله مقتنعا و أنحى على خصومه باللائمة، لأنهم خلطوا بين الفلسفة و السحر، و قد حرر خطابه بعد ذلك في صيغة إيجابية، فأصبح يعرف بكتاب "الأبولوجيا" (Apologie) و لم تعق هذه التهمة مسيرته الفكرية، إذ سرعان ما توجه إلى قرطاج لممارسة العلم و تلقين الدروس لطلبة الثقافة و الأدب، فأصبح قبلة الأنظار في هذه المدينة، و المحاضر المحبوب الذي يعالج جميع المواضيع وخاصة الفلسفية والأدبية البلاغية منها.

وعليه، فلقد نعت أبولويس بمواصفات عدة، إذ كان غريب الأطوار و كثير المتناقضات فهو جدي و طائش و متطير و شاك و معجب بنفسه، و كان يدافع عن "المستضعفين" كثيرا. و كان أبولويس كاتباً مرموقاً في عصره بين أدباء الثقافة العالمية، إذ نافس اللاتينيين و الرومانيين و اليونانيين على الرغم من تأثره بهم خلقا وتناصا ولاسيما في روايته العجائبية التي ألفها في أحد عشر جزءا، و بها وضعه تاريخ الفكر في مصاف كبار الكتاب العالميين الخالدين في كتابه ذاك الذي يسمى "التقمصات Les métamorphoses أو الحمار الذهبي، علاوة على كونه مسرحيا و شاعرا كبيرا خاصة في ديوانه (الأزاهير) Florides، وهو عبارة عن مقتطفات شعرية ألقاها في قرطاج وقد ترجمها إلى اللغة العربية الدكتور فهمي خشيم. و يضم هذا الديوان ثلاثا و عشرين قطعة من خطاباتة تتفاوت طولاً وقصراً، جمعها أحد المعجبين به "كباقة" جمعت أجمل ما قاله البلغاء حول الزهور.

أما أشهر اعماله فهي رواية (الحمار الذهبي)؛ ولها تسميات عدة من بينها: المسوخ Les

métamorphoses ، وقصة المسخ، أو "الحمار الذهبي" (أو التحولات)، أو الحمار الذهبي فحسب كما لدى أبو العيد دودو ، أو "تحولات الجحش الذهبي" كما عند فهمي علي خشيم. ومن كتبه الأخرى "دفاع صبراته" الذي ترجمه الدكتور فهمي علي خشيم، و "في السحر"، و كتاب "شيطان سقراط" وهو عبارة عن كوميديا ساخرة تختلط فيها الفلسفة بالسخرية، وقد شرع الكاتب الليبي فهمي علي خشيم في ترجمته إلى اللغة العربية.

هذا، وقد ظهرت قصة أبوليوس في مسخ الإنسان إلى حيوان ثم عودته الى حالته الأولى في أواخر القرن الأول بعد الميلاد أي حوالي سنة 170 م في قرطاج، و راوي هذه القصة هو لوسيان حيث حوّل البطل لوكسيوس إلى حمار الذي سيعود إلى صورته الأدمية الأولى بعد مغامرات عديدة تتخللها قصص جزئية متداخلة، تضمينا و تشويقا وتوليدا كقصة "بسيشية وكوبيدون" الرائعة في أبعادها الفاطاستيكية والأخلاقية. وتتميز رواية "الحمار الذهبي" بطابع ملحمي و عجائبي غريب، حيث تعتمد على فكرة المسخ و تحويل الكائن البشري الى حيوانات أو أشياء على غرار الإبداعات اليونانية . إذ يتحول لوكسيوس في هذه الرواية إلى حمار بسبب خطأ حبيبته فوتيس التي كان يحبها لوكيوس كثيرا حينما ناولته مادة دهنية في ملك سيدتها بامفيل زوجة ميلون التي تمارس السحر في غرفتها السرية، وبهذه المادة يتحول الكائن البشري إلى أنواع من الطيور والكائنات الخارقة التي تجمع بين الغرابة والتعجيب. وعندما سمع لوكيوس الشاب أسرار سحر هذه المرأة دفعه طفله وفضوله إلى أن يأمر فوتيس بجلب دهن الساحرة ليجربه قصد التحول إلى طائر لينأى عن الناس ويهاجر حيال عالم المثل بعيدا عن عالم الفساد والانحطاط البشري. بيد أن فوتيس جلبت له مادة دهنية سامة تحوّل الإنسان إلى حمار. و بعد مغامرات صعبة ذاق فيها لوكيوس أنواعا من العذاب والهلاك وتعرف عبرها مكائد البشر وحيلهم يعود إلى حالته الأدمية الإنسانية بعد أن تدخلت الآلهة إيزيس لتجعله راهبا متعبدا وخادما وفيا لها.

ونخلص إلى أن رواية أفولاي "الحمار الذهبي" سواء أكتبت باليونانية أم باللاتينية أم بتيفيناغ، فإنها إبداع عالمي يعبر عن هوية أمازيغية مغاربية نوميدية. وقد أثرت عجائبية هذه الرواية الفانطاستيكية على الأدب القديم والرواية الغربية الحديثة و الرواية العربية المعاصرة ولاسيما المغاربية منها. ولا ننسى أن نقول كذلك بأن هذه الرواية من أقدم الروايات الأمازيغية التي تحسب على الأدب الأمازيغي لا على الأدب اللاتيني كما يذهب إلى ذلك إميل فاغيه Faguet في كتابه "مدخل إلى الأدب" الذي حاول أن يطمس أمازيغية هذه الرواية ذات الشهرة العالمية ليلصق عليها الهوية اللاتينية ليجرد الأمازيغيين من كل الفضائل الإيجابية و مهارات الابتكار و الإبداع و لينسبها إلى اللاتينيين والرومان. ولم تقف هذه الرواية عند عتبة التقليد و استلهاهم الخرافة اليونانية، بل كانت آية في الروعة و الخلق والتناص و الإبداع العالمي قصة وصياغة وسردا.

3- القديس أغسطين

ولد القديس أغسطين أو أوغستينوس أو غستان Augustinus في تاجسته أو تاگاست بنوميديا / الجزائر (مدينة سوق أهراس حاليا) من أم مسيحية وأب وثني. ونهل من الفلسفة اليونانية وفكر المدرسة الإسكندرية بعد سفره إلى روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية الفيصرية فتمثل هناك الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التي تجمع بين مثالية أفلاطون وروحانيات المشرق والفكر الغنوصي لدى أفلوطين. وبعد عودته سنة 388م إلى سوق أهراس أنشأ ديرا للتعبد والدعوة إلى الديانة المسيحية بعد أن تنصر في الثالثة والثلاثين من عمره، وعين بعد ذلك أسقفا بمدينة عنابة التي روج فيها أغسطين أفكاره الدينية ومعتقداته الإنجيلية التي كان لها أثر عميق في الكنيسة المسيحية، دون أن ينسى هويته الأمازيغية التي كان يدافع عنها كثيرا بالفكر والممارسة. ويعرف عن أغسطين أنه كان أستاذا نابها درّس البلاغة في القرية التي ولد فيها، ففي قرطاجة، ثم في روما وميلانو. وبعد اعتناقه للمسيحية" رقي الدرجات الكنسية في ظرف تسع سنوات فقط، فأصبح أسقفا سنة 396م، وكرس حياته لتنظيم الكنيسة الإفريقية والتأليف الديني. وقد ترك للمسيحيين مؤلفات لا تزال حتى اليوم مرجعا لهم، يعتبرونها قاعدة صلبة لفلسفة أغانيمهم الثلاثة."

و للقديس أوغسطين أكثر من مائتي كتاب باللاتينية أشهرها: كتاب " اعترافاتي" الذي يعد - على حد علمي- أول كتاب في الاعترافات وأول خطاب سير ذاتي في تاريخ الإنسانية ، وقد قيل في حق هذا الكتاب كثير من الأقوال التي تشيد بكتاب الاعترافات وتجعله في مصاف الكتب القيمة والمؤلفات السبابة إلى وضع أسس أدب

الاعتراف وتأسيس جنس السيرة الذاتية، وهذا الدارس العراقي إحسان عباس يدرج أوغسطين ضمن الأدب الغربي اللاتيني متجاهلا هويته الأمازيغية .

ومن أهم الكتب الأخرى التي ألفها أوغسطين كتاب "مدينة الإله" الذي دافع فيه عن المسيحية وانتقد فيه المذهب الدوناتى، وكذلك كتاب "اعترافات التوبة"، وكتاب "المراسلات".

ويظهر أن "القديس أوغسطين" كان متعاطفا "مع الأفارقة أي مع الأمازيغيين ويدافع عن هويتهم، ولكن في نطاق العمل التبشيري الرسمي. ومما يلفت النظر أنه هو المؤلف الأفريقي اللاتيني الوحيد الذي ضبط تاريخ ولادته، كما ضبط تاريخ وفاته. والسبب هو أن أحد أبويه كان رومانيا، كما هو معلوم. وليس من المستبعد أن تكون هجنته هي سبب موالاته للسلطة الرومانية الدينية...."

وهنا نفتح قوسا لنقول بأن أوغسطين كان يحارب من قبل الأمازيغيين بسبب ميله الكبير إلى الدولة الرومانية، وخاصة من قبل رجال الدين الدوناتيين الذين انشقوا عن الكنيسة الرومانية الرسمية. ومن الذين رفضوا خط أوغسطين في تمثيل تعاليم كنيسة روما القيصرية أوغستينوس الدوناتى الذي عرض على القضاء في أوائل القرن الخامس الميلادي .

هذا، وقد مات أوغسطين شهيدا في 29/08/430م مدافعا عن مدينته عنابة ضد الغزاة الونداليين الهمج. ونقول في حقه ماقاله المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان الذي اعتبره "خطيبا وكاتبا من طراز عال، فلم يتح للمسيحية أن رزقت زعيما في مرتبته قط" .

أما إميل فاغيه Emile faguet فقد قال في حقه كلاما رائعا يبين مكانته الكبيرة في الثقافة القديمة: "والقديس أوغسطينوس فيلسوف قبل كل شيء، رجل يحلل الآراء ... وهو فوق ذلك خطيب عظيم مؤرخ أو بالأحرى فيلسوف للتاريخ في كتابه "مدينة الله" ، وهو أخيرا شاعر للقلب والوجدان الممتع في "اعترافاته" الخالدة. وربما كان هذا الرجل أغرب رجل في العالم القديم كله."

ويتبين لنا من خلال مؤلفات النصارى الأفارقة لمسيرة الكنيسة أنها "كانت أيام ترتوليان تعارض السلطة الرومانية معارضة عنيفة إلى حد رفض الانخراط في الجندية، ثم انتهت أيام أوغسطين إلى التفاهم والتعايش معها. فأصبحت كل من السلطتين المدنية والدينية، تعترف بنفوذ الأخرى المطلق داخل النطاق المحدد لها."

الأدب الجزائري باللغة الفرنسية

1- النشأة والتطور

يرجع المؤرخ والباحث "جان ديغو" أول نص أدبي كتبه جزائري باللغة الفرنسية إلى سنة 1891 ، وهو عبارة عن قصة بعنوان "انتقام الشيخ"، مستقاة من التقاليد الاجتماعية الجزائرية، كتبها محمد بن رحال، ونشرتها "المجلة الجزائرية التونسية، الأدبية والفنية"، إلا أن الباحث نفسه يذكر أن عملية المسح الشامل التي قام بها للجزائري والمجلات التي كان يصدرها الفرنسيون في الجزائر، في الفترة ما بين 1880 و1920، بحثا عن نصوص أخرى لجزائريين آخرين، لم تسفر إلا على نتائج هزيلة، بحيث لم يعثر إلا على نصوص قليلة موقعة بأسماء ذات "رنين" عربي - حسب تعبيره - مثل "الجزائري" و"الراوي" و"الفراني"، وهو يشك في حقيقة أصحابها، بل ويرجح أنها أسماء مستعارة لمستوطنين فرنسيين، ويستثني اثنين منهم، أحدهما يدعى أحمد بوري، الذي نشر سنة 1912 في جريدة "الحق" رواية مسلمة بعنوان "مسلمون ومسيحيون"، ويعلق على الرواية بأنها كتبت بـ "ماء الورد"، كناية على القفز المتعمد للمؤلف على تناقضات الواقع، حين يصور العلاقة بين الفرنسيين والجزائريين في غاية الانسجام والوئام. والثاني يدعى سالم القبي، الذي نشر سنة 1917 مجموعة شعرية بعنوان "حكايات وقصائد من الإسلام"، أتبعها بمجموعة أخرى سنة 1920 بعنوان "أنداء مشرقية" (Rosée d'Orient) ولا يختلف عن الأول في تمجيده للإسلام والشرق وفرنسا في آن واحد.

ونظرا لهذا الفراغ المسجل بين 1891 وسنوات العشرينيات من القرن العشرين، فإن "جان ديغو"، يتخذ سنة 1920 كانطلاقة حقيقية لهذا الأدب الناشئ، ويعدّ مؤلف القايد بن الشريف، الموسوم بـ "أحمد بن مصطفى القومي" بداية تلك الانطلاقة، وينظر إليه على أنه أول رواية يكتبها جزائري باللغة الفرنسية⁴.

وإذا سلمنا بهذا التاريخ على أنه بداية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، وهو لا ينكره بعض الباحثين المعروفين، ولكنهم يتجاهلونه في الوقت ذاته، كما يتجاهلون كل ذلك الأدب الذي كتبه الجزائريون بالفرنسية في فترة ما بين الحربين، فإن هناك ملاحظة لا يمكن لنا أن نتجاوزها هنا، دون أن نبحث فيها، وهي طول المدة التي تفصل بين بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وبداية ظهور هذا الأدب، فهي مدة تزيد عن التسعين عاما وهو أمر غير عادي، وغير طبيعي، لاسيما بدعوى الاستعمار الذي كان يردد دائما أن رسالته في الجزائر هي رسالة حضارية.

والحقيقة أن هناك عوامل وأسبابا عديدة أخرت ظهور هذا الأدب كل هذه المدة، أبرزها: أولا: سياسة العدوان التي انتهجها الاستعمار طوال احتلاله للجزائر، وحربه الاستئنافية ضد الأمة الجزائرية ومقوماتها الأساسية، الشيء الذي جعل العلاقة بين المحتلين وأهل البلد الشرعيين علاقة حرب وتوتر دائم، منعت أي احتكاك إيجابي بين الطرفين، ووقفت حائلا دون أي تعاون مثمر، سواء على الصعيد السياسي أو الفكري، أو الحضاري، وذلك لانعدام الثقة بينهما، والثقة شرط أساسي لقيام مثل ذلك التعاون المنشود في مجال السياسة، أو التلاحق الفكري، أو التأثير الثقافي والحضاري، والعامل الثاني يتمثل في سياسة التعليم التي طبقها المحتلون في الميدان، أو على الأصح سياسة التجهيل التي طبقوها بحيث قضاوا على البنية التقليدية للمنظومة التعليمية التي كانت قائمة قبل الاحتلال قضاء يكاد يكون مبرما، ولم يعوضوها بمنظومة أخرى تضمن لكل أبناء الشعب الحد الأدنى من التعليم كما كان الحال في فرنسا.

³ عن نص مقال مطول للأستاذ أحمد منور.

⁴ لم نتمكن، رغم المحاولات المتكررة من العثور على هذا المؤلف في مخطاته، غير أنه، نظرا لغلبة طابع المذكرات الشخصية عليه، ويروي فيه صاحبه قصة مشاركته في الحرب العالمية الأولى، كمجنّد جزائري في الجيش الفرنسي، كما يذكر "جان ديغو"، فإن غيابه من المدونة لا يؤثر على دراستنا.

لقد كان الجزائريون والمستوطنون الأوروبيون يعيشون جنبا إلى جنب، ولكن كخطين متوازيين لا يلتقيان فالمستوطنين مقاهيهم وملاهيهم ونواديهم ومسارحهم، وللجزائريين مقاهيهم ونواديهم وجمعياتهم الثقافية والرياضية الخاصة بهم، كما لم يكن الجزائريون من جهتهم يبدون أية رغبة في مشاركة المستوطنين أنشطتهم الثقافية أو الترفيهية، ومن هنا ينفي "جاك بيرك" وجود أي تعايش حقيقي كان قائما بين الأوروبيين والجزائريين. ويعبر أحد الباحثين الفرنسيين عن هذه الهوة التي تفصل بين الاثنين أحسن تعبير حين يقول: ((لا يوجد الأوروبيين في المدينة وأحياء "الأهالي" مسافة فلكية هي تلك التي صنعها الاستعمار)).

ونظرا لهذه الوضعية العدائية المستحكمة التي ظلت تطبع العلاقة بين الطرفين، فقد كان أي تبادل ثقافي، أو تلاقح فكري أو تأثير حضاري بينهما يكاد يكون منعما. لقد كان المحتل ينظر في الغالب إلى الثقافة المحلية نظرة احتقار، أما الجزائريون فكانوا يتوجسون خيفة من ثقافة المحتل ينظر في الغالب إلى الثقافة المحلية نظرة احتقار، أما الجزائريون فكانوا يتوجسون خيفة من ثقافة المحتل، ويقابلون بحدة كل ما يصدر عنه، ولكن هذا الوضع عرف عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى بعض الانفراج ووقع ما يشبه نوعا من التقارب الحذر بين الطرفين، حيث حاول كل طرف الانفتاح على الآخر، وساعد على ذلك حالة الانفراج الدولي التي أعقبت الحرب، وإعلان مبادئ ويلسون الشهيرة التي تحدثت لأول مرة عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، كما ساعدت على تجسيد هذا الانفراج إجراءات سياسية وإدارية اتخذها الحكومة الفرنسية خففت من حدة التوتر وهأت الأجواء المناسبة لمثل ذلك الانفتاح، وتمثلت فيما أصبح يعرف بقوانين 4 فبراير 1919، التي ألغت السلطات الاستعمارية بموجبها معظم مواد "قانون الأندجينا" العنصري، الذي كان يحكم الجزائريين بقبضة من حديد، وكانت الحكومة الفرنسية ترمي من وراء قيامها بتلك الإجراءات المساعدة على الانفراج إلى رد بعض الجميل لما يربو عن ثلاثة وسبعين ومائة ألف جندي جزائري كانوا قد شاركوا في الحرب تحت العلم الفرنسي، وقتل وجرح منهم الآلاف، كما كانت أيضا لفئة اعتراف وتقدير منها لجهود العمال الجزائريين الذين كانوا يقيمون على التراب الفرنسي، وضمنوا استمرار دوران آلات المصانع الفرنسية طوال الحرب، معوضين في ذلك مئات الآلاف من زملائهم العمال الفرنسيين الذين جندوا في الحرب.

وكان هناك عامل سياسي آخر له تأثيره أيضا في اتخاذ تلك الإجراءات الإصلاحية في السياسة الفرنسية في الجزائر، تمثل في بداية استعداد المحتلين للاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، وكان لابد من إظهار شيء ما أمام الرأي العام العالمي، والفرنسي نفسه، يبرر استمرار احتلال البلد، ويظهر ثمار "الرسالة الحضارية" التي طالما ادعى الاستعمار الفرنسي أنه جاء لنشرها في الجزائر، فكان لابد من تشجيع الأدب، ونشر أعمال إبداعية لكتاب من "الأهالي" تظهر كيف أن "جمعة" أو "Friday" قد حفظ الدرس، وتعلم لغة سيدة وعاداته المتحضرة، وأصبح يعبر بتلك اللغة عن مختلف شؤونه الخاصة والعامة.

وعلى هذا النحو ظهرت في عشرية 1920-1930 خمسة أعمال أدبية من قبل إلى بعضها، وهي مجموعة سالم القبي الشعرية، والسيرة الذاتية للقايد بن الشريف، ونضيف إليهما رواية "زهراء، امرأة المنجي" لعبد القادر حاج حمو التي صدرت سنة 1925، و"مأمون" لشكري خوجة التي صدرت سنة 1928، و"العلج أسير بربروسيا" للكاتب نفسه التي صدرت سنة 1929. وواضح أن هذا العدد القليل من الأعمال الأدبية لا بشكل عامل فخر إذا قيس بطول فترة الاحتلال أو بحجم الدعاية التي أحاطت بها السلطات هذا الحدث. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا العدد نفسه يعكس مدى عمق المدرسة الاستعمارية وضالة النتائج التي أعطتها سياسة الاستعمار التعليمية بخصوص الأهالي.

ولأن الكتاب من أبناء البلد الأصليين نشرت أعمالهم قد اختيروا بعناية كبيرة. وهم قبل شيء نتاج المدرسة الفرنسية، وينتمون في معظمهم إلى أبناء الذوات، وإلى المتعاونين مع الإدارة الاستعمارية ممن كانت أحوالهم ميسرة، ويؤمنون فوق هذا بفكرة التعايش مع الاستعمار، وبفكرة الاندماج في مجتمع المستوطنين -فإنهم كانوا يشيدون صراحة، وبلا تحفظ بـ "فضل" الاستعمار على البلد، ويظهرون إعجابهم بالثقافة والحضارة الفرنسييتين، غير أن القضايا التي عبروا عنها قد عكست بالرغم من كل ذلك، وعن غير قصد منهم يبدو، العديد من الإشكاليات المعقدة التي كانت تطرحها تلك الثقافة والحضارة الغربية الليبرالية، بالنسبة للمجتمع الجزائري المسلم، ومن أهم

تلك الإشكاليات مسألة حرية تعاطي الخمر، ولعب القمار، وهي عادات كانت تشكل جزء من الحياة اليومية العادية للفرنسيين، أدخلوها معهم للجزائر، وصارت شيئا مباحا لا يعاقب عليه القانون، وكذا تسامحهم في ممارسة الدعارة، وتعاطي بعض المخدرات ولاسيما الحشيش، حيث كانوا يعدونها من الأمور الشخصية التي تتعلق بحرية الفرد في المجتمع، في حين، تعد هذه الأشياء من المحرمات في الشريعة الإسلامية، وتلزم إقامة الحد على مرتكبها.

مع العلم هؤلاء الكتاب لم ينظروا إلى الأمور المذكورة من وجهة النظر الشرعية المحضة، وإنما أولوا عنايتهم بتصوير آثارها المدمرة على الأسرة المسلمة في الواقع الاجتماعي. هذا ما حاولت أن تعبر عنه رواية "زهراء، امرأة المنجي" لعبد القادر حاج حمو، التي تعد بحق باكورة الأعمال الروائية للكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية، فقد كان بطلها، وهو عامل جزائري يعمل في مناجم الفحم بضواحي مدينة مليانة، يعيش مع زوجته عيشة راضية قانعة، رغم فارق الأجر الكبير بينه وبين ما يتقاضاه أي عامل أروبي يعمل معه في المنجم ذاته، وما إن خالط مجتمع المدينة، وعافر الخمرة مع رفاقه من العمال الأوروبيين، حتى تدهورت حاله، وأهمل زوجته، وترك الصلاة، وانتهى به الأمر إلى السجن متهما بارتكاب جريمة قتل، لم يقتربها في الحقيقة. وكذلك عالجت رواية "مأمون" لشكري خوجة موضوع الخمرة ونتائجها المدمرة على حياة بطله، الذي جاء من عمق الريف الجزائري إلى العاصمة لمتابعة الدراسة، وبعد مخالطة المجتمع المدني الأوروبي.

بحكم أنه ابن "قايد" انتهت حياته بالمرض والموت من جراء الشرب والسهو ولعب القمار.

والشيء المؤكد أنه حتى وإن جاءت ولاية الشكل الروائي لدى الجزائريين في سنوات العشرينيات كاختيار فردي في أحد جانبي الظاهرة، كما يرى مصطفى الأشرف، فإن موضوع معاقرة الخمرة، وتعاطي الحشيش، ولعب القمار، لم يأت عفويا، ولم يكن أبدا مجرد مسألة شخصية، أو "موضة" أدبية لدى كتاب هذه الفترة، ولكنه كان هاجسا اجتماعيا، تحركه انشغالات وتساؤلات فكرية وسياسية، عن الحدود الفاصلة بين المحرم والمباح في الدين وفي القانون المدني، بين حرية الفرد بالمفهوم الغربي، والوازع الديني والأخلاقي بالمفهوم الإسلامي، ومن هنا نلاحظ أن أزمة الهوية قد رافقت الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية منذ بدايته الأولى.

وقد تطورت هذه الانشغالات والتساؤلات لدى هؤلاء الكتاب، إلى ما يشبه الحيرة أو أزمة الضمير، حينما طرحت مسألة إمكانية حصول بعض الجزائريين على صفة "المواطنة الفرنسية" "La citoyenneté française"، وجاءت هذه المسألة كجزء من الانفتاح الذي أشرنا إليه، وكنتيمة للإصلاحات التي أتت بها قوانين 4 فبراير، وهي مسألة، تمس في الصميم - كما هو واضح - موضوع الهوية، فكان السؤال المحير لدى الكتاب، ولدى بعض الزعماء السياسيين ولدى المثقفين الجزائريين باللغة الفرنسية بوجه عام، هو: كيف يمكن للجزائري أن يصبح فرنسيا، مع ما في ذلك تناقض، لأنه فرنسي بحكم واقع الاحتلال ومع ما يترتب على ذلك - في حالة حصوله على صفة مواطن فرنسي فعلا - من تبعات والتزامات، وكيف يبقى في الوقت ذاته عربيا مسلما؟ لقد كان هذا السؤال محورا أساسيا في معظم الروايات التي ظهرت في الفترة ما بين 1929 و1948، وهي على أية حال قليلة العدد، لا تتعدى سبع روايات في مجملها، مثل رواية "مريم بين النخيل" (1934) لمحمد ولد الشيخ، و"بولنوار الفتى الجزائري" (1941)، لأربح زناتي، و"ليلى الفتاة الجزائرية" (1948) لجميلة دباش، ولكن تظل رواية "العلاج أسير بلاد البرابر" لشكري خوجة أهم رواية عالجت هذا الموضوع، مع أنها كانت أسبق في الظهور من كل الروايات المذكورة، وذلك لأنها ابتعدت عن المعالجة المباشرة للموضوع، حيث لجأ كاتبها إلى استلهاهم وقائع من تاريخ "رياس البحر"، في جزائر القرن السادس عشر، ليسقطها، بشكل فني بارع على عصره في عشرينيات القرن الماضي، ويحاول أن يدفع القارئ إلى استخلاص العبرة من كل ذلك.

وتجدر الملاحظة هنا إلى أن الزعيم الوطني فرحات عباس كان أول من فتح النقاش في هذا الباب، وكرّس استعمال صفة "الفتى الجزائري" في أدبيات الحركة الوطنية في فترة العشرينيات والثلاثينيات، كدلالة على الجيل الجديد من المثقفين الجزائريين من خرجي المدرسة الفرنسية، وذلك في مقالات متفرقة له نشرها في الصحف ما بين سنتي 1922 و1930، ثم جمعها ونشرها سنة 1931 في كتاب بعنوان "الفتى الجزائري"، وقد ترددت هذه التسمية كثيرا بعد هذا التاريخ وبرزت في عناوين العديد من روايات الجزائريين، التي أثبتناها أعلاه. وقد شكل

كتاب "الفتى الجزائري" أرضية النقاش الذي شغل رواية هذه الفترة وأهم الأطروحات الفكرية الرئيسية التي حاولوا تجسيدها عن طريق الفن الروائي.

لقد شكلت الموضوعات المشار إليها الخلفية الفكرية لمعظم الروايات التي ظهرت في الفترة التي سبقت 1952- كما سبقت الإشارة . ومثل ما دافع فرحات عباس عن الإسلام بحماس كبير دافع الروائيون من جهتهم بطرق شتى عن الإسلام، وعملوا على التعريف به خاصة، وإظهار سمو مبادئه، وعظمة رسالته، لأنهم كانوا يعتقدون أن الأوروبيين لا يعرفون الإسلام، ولو عرفوه على حقيقته لغيروا رأيهم فيه، ولذلك كثيرا ما نجدهم يستشهدون بالآيات القرآنية، وبالأحاديث النبوية، ويحرصون أشد الحرص على شرحها وتبيين مقاصدها، أما مظاهر النقص الذي يحسبه الأوروبيون على الإسلام، فيرجعها هؤلاء الروائيون إلى حالة تخلف المسلمين وجهلهم وفهمهم الخاطئ للإسلام وتعاليمه، مثل فهمهم لمعنى القضاء والقدر، الذي يتحول عند بعضهم إلى استكانة وخمول، ورضى بالواقع مهما كان مزريا وبائسا، أو مثل إفراطهم في العمل بالتراخيص التي رخصها لهم الشرع في بعض أمور حياتهم، كتعدد الزوجات.

غير أن روائي هذه المرحلة- وفي تأثر واضح بكتابات المستوطنين الأوروبيين من مدرسة "الجزارة" (Les Algérienistes) أحلوا مسألة الزواج المختلط بين الجزائريين والفرنسيات المحل الأول، وهو الشيء الغالب، أو بين الفرنسيين والجزائريات، وهو القليل، نظرا للمانع الديني، ومن خلال رابطة الزواج المختلط، الذي يعد خرقا للممنوع، سواء بالنسبة للجزائريين أو بالنسبة للمستوطنين الأوروبيين، يطرح الروائيون مختلف القضايا الاجتماعية والثقافية، ومن خلال السياسية، التي يرونها سببا في تباعد الطائفتين وتنافرهما.

ونجد في النظر إلى الزواج المختلط موقفين رئيسيين، فقد عده بعضهم ممكنا، ولكنه غير مجد في خلق الانسجام المطلوب بين الطائفتين، نظرا لاختلاف العقيدة، وهذا ما عبر عنه شكري خوجة في روايته "العلاج أسير بربروسيا"، في حين عده بعضهم الآخر- وهم الأكثرية- السبيل الوحيد للتقارب والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين، لإيجاد الانسجام المرجو في التركيبة الاجتماعية، في ظل الواقع الاستعماري، وهذا ما ذهب إليه محمد ولد الشيخ في "مريم بين النخيل" ورشيد زناتي في "بولنوار الفتى الجزائري"، وجميلة دباش في "إلى الفتاة الجزائرية". غير أن الجميع يتفق على أن ما يمنع تحقيق مثل هذا التقارب، بل ويفشل الزيجات المختلطة، إنما هو الأحكام المسبقة التي تحملها كل طائفة عن الأخرى، ورفضها لهذا الزواج، وعدم استعدادها لأن تترحز قيد أنملة عن مواقفها، وهو ما يشكل ضغطا اجتماعيا قويا لا يستطيع أبطال الروايات الصمود في وجهه، فيكونون ضحايا المجتمع من الطائفتين. هذا ما حدث لبطل رواية "مأمون"، وهذا ما حدث لبطل رواية "بولنوار الفتى الجزائري".

الأول أحد المناضلين الجزائريين الذين عرفوا بكفاحهم الطويل ضد الاستعمار بالسلاح وبالفكر على السواء إلى آخر لحظة في حياته، واختار أن يعبر، في طفرة نوعية على مستوى الوعي الوطني، عن كفاح شعوب شمال إفريقيا، وتطلعها للانعتاق من ربة الاستعمار، من خلال تصويره لوقائع ثورة الريف بالمغرب الأقصى سنة 1923 بقيادة عبد الكريم الخطابي، التي شارك فيها الكاتب شخصا إلى جانب الأمير عبد المالك الجزائري - أحد أحفاد الأمير عبد القادر- الذي كان يقيم بالمغرب، وقاد المقاومة المسلحة مع عبد الكريم الخطابي، وهذا ما يفسر أن الطبعة الأولى من هذه الرواية، التي كانت سباقة في طرح موضوع الكفاح المسلح كسبيل وحيد للتحرر من الاستعمار، قد نشرت بالقاهرة، لأنه كان من المستحيل إصدار مثل هذه الرواية الثورية آنذاك في الجزائر، أو حتى في فرنسا، الذي كان قد صدر قبل عام من روايته المذكورة، وفي هذه الرواية يعود الكاتب إلى معالجة موضوع الخمرة الذي كان يشكل الهاجس الرئيسي لكاتب العشرينيات كما أشرنا من قبل، ولكن من منظور جديد، وفي نطاق تصور نظري متكامل لدى المؤلف عن "شروط النهضة" الجزائرية التي يرى أنها لا يمكن أن تقوم إلا على أساس الرجوع إلى الأصل، أي إلى الدين الصحيح، وبناء على هذا الأساس يعطي المؤلف الحل، ولا يترك بطله حائرا مستسلما، ينتظر مصيره المحتوم في قدرية وعجز كامل، كما كان حال بطل رواية "زهراء امرأة المنجمي" و"مأمون"، ويتمثل الحل في توبة البطل، وتكفيره عن ذنوبه، وبالذهاب إلى البقاع المقدسة ليؤدي فريضة الحج، ومن هنا جاء عنوان الرواية "لبيك"، وهو بهذا الحل ((يريد أن يبرهن بأن لا شيء قد ضاع، وبأن

الشعب يستطيع بلا ريب أن يمسك بزمام أمره، ويستعيد شخصيته عن طريق تجديد تمسكه بعقيدته التي هي ضمان تحرره)).

وشكل ظهور رواية "الدار الكبيرة" لمحمد ديب سنة 1952 منعطفا حاسما في تطور الأدب الروائي الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية على مستوى المضمون، فالأول مرة تتجاوز فيه هذه الرواية صالونات المثقفين ومناقشتهم الفوقية عن العدالة والمساواة، في ظل الحكم الاستعماري، ووهم التعايش السلمي بين "الأهالي" والمعمرين، عن طريق الدعوة إلى الاندماج والزواج المختلط، لتنزل إلى الطبقات الدنيا من المجتمع، وتحدث عن هموم الناس البسطاء من عامة الشعب، وتصف أحوالهم المعيشية القاسية، ومعاناتهم من الجوع والفقر والقهر، ولأول مرة تتحدث عن النضال السياسي الجزائري، وعن مناضلين يعيشون في الخفاء، مطاردين من قبل البوليس الاستعماري، ولأول مرة تطرح تساؤلات محددة وصريحة عن الهوية الوطنية وعن مفهوم الوطن، وعن الهوية الحقيقية للجزائريين.

وقد تأكد التوجه الجديد في أعمال الكاتب اللاحقة، لاسيما في روايتي "الحريق" (1954)، و"مهنة الحياكة" (1957) اللتين تشكلان امتدادا وتكملة لـ "الدار الكبيرة"، فقد كشفت الأولى عن عالم البؤس في الريف، ومعاناة الفلاحين من الفقر المدقع والاستغلال الفاحش، وقهر المعمرين لهم كلما حاولوا أن يحتجوا على وضعهم المزري، وصورت الثانية حياة الحرفيين في المدن، التي لم تكن تختلف في شيء عن حياة الفلاحين البائسة، إلا في نوع المهنة ونوعية المستغل. وظهرت في هذه الفترة نفسها أعمال روائية أخرى لكتاب آخرين، تسير في الاتجاه نفسه الذي سارت فيه أعمال محمد ديب الأولى، نذكر منها على الخصوص رواية "نوم العدل" لمولود معمري، و"نجمة" (1956) لكاتب ياسين، فقد كشفت الرواية الأولى عن حالة التخلف والفقر والاستغلال والحرمان التي كانت تعاني منها القرى القبائلية المنعزلة في رؤوس الجبال، تحت وطأة الجهل والتقاليد المتحكمة في حياة الناس من جهة، ووطأة الاستعمار واستغلاله لحالة البطالة والفقر المدقع الذي يعيشه الجزائريون في المدن، والاستغلال والإهانة التي يتعرض لها العاملون باليومية في ورش المعمرين وضياعهم الواقعة على أطراف المدن، وهو ما يضاعف الإحساس بالظلم لدى أولئك العمال، ويدفع ببعضهم إلى التمرد، وربما إلى ارتكاب جرائم قتل.

بمثابة المؤشر الذي يشير إلى ما آلت أوضاع الجزائريين من التردّي والفساد، والمحدّر من مغبة ما كان وشيك الوقوع، ألا وهو انفجار الثورة الكبرى في فاتح نوفمبر 1954. علما أن هذه الروايات لم تنشر في الجزائر، وإنما نشرت في فرنسا، وفي دور نشر معينة ومعروفة، حيث وجدت تعاطفا معها من قبل مثقفي اليسار الفرنسي خاصة، والمثقفين المتنورين بوجه عام، ووجدت رواجاً لدى جمهور القراء الفرنسيين، وهذا ما عبّل بظهور أعمال روائية أخرى، لنفس المؤلفين المذكورين، ولمؤلفين آخرين، تعززت بهم وبأعمالهم هذه النزعة الاحتجاجية التي عرف بها الأدب الذي كتبه الجزائريون بالفرنسية في فترة الخمسينيات، لتتحول مع الوقت إلى نزعة نضالية ثورية في أعمال كاتب ياسين اللاحقة، ومالك حداد، وآسيا جبار، في توافق مع الأحداث السياسية التي تطورت بداية من سنة 1954 إلى كفاح مسلح، بحيث لم يعد هناك ما يدعو إلى أية مهادنة للاستعمار، أو أية مصالحة معه، إلا على أساس انفصال الجزائر عن فرنسا، واستقلالها عنها استقلال تاما، وقد عبر الدكتور صالح قدر - أحد أبطال رواية "التلميذ والدرس" - عن هذا المعنى بكثير من الدقة والإيجاز، حين اعتبر أن حياته الحقيقية قد بدأت مع مظاهرات 8 مايو الدامية.

وهذا هو المعنى الذي عبرت عنه الأعمال الروائية اللاحقة التي ظهرت بدء من سنة 1958، مثل رواية "الإنطباع الأخير" (1958) لمالك حداد، التي تعد أولى الروايات التي صورت وقائع الثورة المسلحة، "وصيف إفريقي" (1959) لمحمد ديب التي قدمت نماذج من المقاومة الشعبية، أبطالها فلاحون من الأرياف، وحرفيون في المدن، وشبان وفتيات، مثقفون وأنصاف مثقفين وأميون، وعرضت لوحات دامية مما كانت تقوم به القوات الفرنسية من قنبلة بالطائرات، وقصف بالمدمعية للقرى والأرياف، وتشريد لسكان تلك القرى، وما كانت تفعله تلك القوات نفسها في المدن من قمع وترهيب للسكان الأمنيين، وتعذيب للمناضلين والثوار الذين يقعون بين أيديها، وزج بالأبرياء في غياهب السجون والمحتشدات. وقد عاد ديب إلى تصوير أحداث الثورة من جديد في روايته اللاحقة:

"من يذكر البحر" (1962)، ولكن بأسلوب مغاير، حيث لجأ فيها إلى استعمال الرمز والتكثيف الشديد للأحداث، ليعبر بذلك عن أجواء التوتر والرعب التي كانت تسود المدن، وعن حالة الخراب والدمار التي آلت إليها القرى والمدن.

وفي رواية "التلميذ والدرس" (1960)، و"رصيف الأزهار لم يعد يجيب" (1961) لمالك حداد، يرسم الكاتب جو الحرب هذا، ولكن بطريقة مختلفة عن محمد ديب حيث يركز على جو القلق والتوتر الذي يطبع الحياة العامة أكثر مما يركز على الأحداث والوقائع، ويجعل أبطاله يعيشون ذلك القلق والتوتر، ويعانون الحرب وآثارها، مثل ما كان خالد بطل "رصيف الأزهار" ((يعاني الحرب كما يعاني صداً في الجمجمة)). وتقول "فضيلة" في رواية "التلميذ والدرس": ((أنا شقية...)). وعلى العموم، فقد كتبت هذه الأعمال أثناء ثورة التحرير من موقف ملتزم ومنحاز- في معظم الحالات- إلى الثورة.

وبإصداره ولديوانه الأول "الشقاء في خطر" (1956) يكون هذا الشاعر قد أعطى للشعر المنظوم بالفرنسية من قبل الجزائريين دوراً رائداً و متميزاً في التغني بالثورة والتحرير على مقاومة المستعمر بالكلمة الشعرية المعبرة والمؤثرة، وكان الشعر قبل هذا التاريخ متخلفاً عن الرواية، وقد جاء ديوانه الثاني "اسمعي وأناديك"، ليعزز مكانة الكلمة الشعرية الملتزمة، ويؤكد قدرة الشاعر الخارقة على الإبداع، وهو الشيء الذي جعل الشاعر الفرنسي الشهير "لويس لأراغون" يعجب به ويصفه بأنه من طيور الأغصان العليا.

وتتنمي معظم الأعمال الروائية التي ظهرت بعد الاستقلال، وحتى نهاية سنوات الستينات تقريباً إلى هذا الاتجاه الذي وصفناه بالاتجاه الملتزم والمنحاز إلى الثورة، وقد اتخذت لها إطار عام أحداث ووقائع الثورة المسلحة، من تصوير لعمليات المقاومة الفدائية في المدن مثل ما نجد في رواية "أطفال العالم الجديد" (1962) لآسيا جبار، وضرب القرى والمدن بالمدافع والطائرات، وهدم المنازل على رؤوس سكانها مثل ما هو الحال في رواية "الأفيون والعصا" (1965) لمولود معمري، ووصف الحياة الصعبة داخل المعتقلات والسجون وتنظيم عمليات الهروب منها كما نجد في روايتي "أصابع النهار الخمسة" (1967) لحسين بوزاهر و"أسلاك الحياة الشائكة" (1969) لصالح فلاح. ويمكن وصف هذه الأعمال بأنها كانت تصور كلها بطش الاستعمار وبشاعة أعماله من جهة، وتشيد من جهة أخرى بكفاح الشعب، وتتغنى بأمجاده ومآثره القديمة والحديثة، وتعمق الإحساس بالوعي الوطني ووحدة الأمة، وتلتقي مع كتابات وأبحاث تاريخية واجتماعية تاريخية ظهرت في هذه الفترة.

وبعد الانقلاب الذي أطاح بنظام الرئيس بن بلة، في 19 يونيو 1965، وقيام النظام في 28 أكتوبر 1963، لاسيما كتابها باللغة الفرنسية، وفضل معظمهم المنفى الاختياري، وكان المنفى في الغالب هو فرنسا، وكانت الأسباب في الواقع غير محددة وغير واضحة، نظراً للتوجه الفكري لدى معظمهم، الذي كان توجهها "ثورياً"، أي أنه كان يتفق مع توجهات البلد السياسية في ذلك الوقت، وهذا ما يجعل اختيارهم العيش خارج الجزائر "لأسباب سياسية" أمراً غير محدد وغير واضح، ولكن على العموم كانوا يشكون من عدم توفر المناخ الديمقراطي الذي يمكنهم من التعبير عن أفكارهم بكل حرية.

وبدا يظهر بعد منتصف الستينات، ضمن أدب الجزائريين المكتوب باللغة الفرنسية، توجه جديد، لاسيما في الرواية، غلبت عليه النزعة السياسية الانتقادية، ولذلك أسماه أحد الباحثين بأدب "النزعة الاحتجاجية، الاجتماعية والسياسية"، ونشر معظم هذا النوع الاحتجاجي في فرنسا، نذكر منه على الخصوص أعمال محمد ديب الروائية التي ظهرت في الفترة ما بين 1968 و1973: "رقصة الملك" (1968)، و"إله أرض البربر" (1970) و"معلم الصيد" (1973)، ورواية مراد بوربون "المؤذن"، و"التطليق" (1968)، و"ضربة شمس" (1972) لرشيد بوجدر، و"موت صالح باي" (1980) لنبيل فارس. فكل هذه الأعمال يجمعها قاسم مشترك واحد يتمثل في النقد الشديد للهجة للأوضاع السياسية والاجتماعية في الجزائر، حتى وإن ركزت على هذا الجانب أو ذلك، أو اختلفت الطرق الفنية التي تعبر بها.

وقد استمر هذا التوجه الانتقادي أو الاحتجاجي حتى بعد وفاة بومدين في أواخر شهر ديسمبر 1978، ونجد ذلك بارزاً في روايات رشيد ميموني خاصة، مثل رواية "النهر المحول" (1982)، التي يشير عنوانها إلى المضمون الذي عبرت عنه الرواية، وهو تحول الثورة على يد العسكر عن مسارها النضالي ذي الطابع الشعبي، وعن

أهدافها الاجتماعية الطموحة، و"طومبيز" (1984)، التي تسير في الاتجاه نفسه، ولكن تحمل مرارة أكبر، وتنتقد الأوضاع الاجتماعية بحدة أقوى، حيث يتعلق الأمر بحرمان مزدوج بالنسبة للبطل الذي يعاني من الفقر والاحتلال الصحي من جهة، ومن النبذ الاجتماعي من جهة أخرى، لأنه جاء إلى هذا العالم نتيجة عملية اغتصاب لأمه، التي ضربت إلى حد الموت، وفارقت الحياة إثر ولادته.

وكذا في روايات الطاهر جاووت، ولكن برمزية أكثر إيغالاً وغموضاً، وبلهجة أقل حدة، مثل روايته "الباحثون عن العظام". وإلى حد ما رواية "منزوع الملكية" (1981)، التي يقترب فيها وضع بطله إلى حد كبير من وضع بطل رواية "طومبيز"، حيث يعاني بدوره من أزمة هوية حادة، نتيجة تجريده من وسيلة التعبير الأساسية التي هي اللغة، ويوظف الكاتب الرمز في هذا العمل على نطاق واسع، ويعطي لنفسه حرية كبيرة في خلط الأساليب السردية، ليرسم لبطله وضعاً مأساوياً مؤثراً.

استمر هذا الاتجاه في الظهور حتى بعد مظاهرات أكتوبر 1988، وصدر دستور 23 فبراير 1989، الذي سمح بالتعددية السياسية. ولعل أبرز عمل روائي ظهر في هذه الفترة هو رواية "شرف القبيلة" (1989) لرشيد ميموني التي رصد فيها سلوكات مسؤولي وإطارات ومناضلي "الحزب الواحد"، التي كانت تتميز، حسب ما تصورهما الرواية، بالنفاق، وتشجع الانتهازية، والرشوة، والجهوية. وصور كل ذلك في شكل كاريكاتوري ساخر.

هذا هو التوجه الذي ساد كتابات الجزائريين باللغة الفرنسية بعد كنتصف عقد الستينات بوجه عام، لكن مظاهر هذا التوجه تعددت وتتنوع، ولم تقف عند حدود المعارضة السياسية البحتة، أو نقد الأوضاع الاجتماعية، والفساد الإداري، فمنذ السبعينات طرحت مسائل أخرى، لعل أهمها مسألة الهوية الوطنية، والهوية الأمازيغية بالتحديد، التي عبرت عنها بشكل مباشر بحوث مولود معمري اللغوية والأنثروبولوجية على الخصوص، وبشكل غير مباشر روايته الأخيرة "العبور" (1982)، كما طرحها غيره في أعمال أدبية مختلفة، تتراوح بين التصريح والتلميح، وبين المباشرة والرمزية، مثل ما نجد في مسرح كاتب ياسين عامة الذي يتميز بأسلوب استفزازي، يسخر فيه من الدين الإسلامي، ويهاجم اللغة العربية الفصحى، ولا يعتبرها لغته أو لغة الشعب الجزائري، وهي لغة ميتة في نظره مثلها مثل اللاتينية، ومثل أعمال نبيل فارس الروائية، مثل "ذاكرة الغائب" (1974)، ومثل المنفى والحيرة" (1979)، التي تطرح العديد من الأسئلة حول الهوية الجزائرية "المستلبة"، والثقافة "الأصلية" المغيبة، وكذا الأمر في بعض أعمال الطاهر جاووت كرواية "منزوع الملكية" التي سبقت الإشارة إليها، وروايته "اختراع الصحراء" (1987)، التي يتخذ فيها من سيرة المهدي بن تومرت البربري أساساً لنقد التاريخ الإسلامي في منطقة المغرب، وي طرح أسئلة إشكالية تتعلق بالهوية الجزائرية، ويحاول أن يسقط وقائع ذلك التاريخ على واقع الحركات الإسلامية في العصر الحاضر.

في حين ظل هناك أدب مهادن للسلطة، صدر معظمه في الجزائر، يتناول موضوعات صارت تقليدية، مثل تصوير أحداث الثورة التحريرية التي سبق أن وقفنا عندها في بعض الروايات، ونذكر في هذا الصدد "المغارة المتفجرة" (1979) لأمنة مشاكرة، و"التمزق" (1980) و"الامتحان الأخير" (1983) لمحمد شايب، و"عصابة الأطلس" (1983)، و"أسود الليل"، و"الأطلس يحترق" (1987) لعز الدين بونمور. كما ظل هناك دائماً أدب يأخذ موضوعاته من الواقع المعيش، ويرصد التحولات الاجتماعية والسياسية التي كانت تحدث في ذلك الحين، وهناك موضوع ظل حاضراً على الدوام في روايات الجزائريين المكتوبة باللغة الفرنسية، ونعني به موضوع السيرة الذاتية للمؤلفين، نذكر منها رواية "الشمس تحت الغروب" (1982)، و"النظرة الجريحة" (1987)، وكلاهما لرابح بلعمري، و"راس المحنة" (1991) لعبد الرحمن الوناس.

وفي مطلع التسعينيات، ومع صعود المد الإسلامي، ودخوله بقوة معترك السياسة في هذه الفترة، أخذت تظهر أعمال روائية في هذا الأدب تنتقد هذا المد نقداً لاذعاً، وتصوره في شكل خطر سياسي واجتماعي داهم، يهدد الديمقراطية والحريات العامة، ومن ثمة تدعو بشكل صريح ومباشر إلى التصدي له ومحاربته بكل الوسائل.

وتعد أعمال رشيد ميموني القصصية والروائية الأخيرة أبرز النماذج في هذا الصدد، مثل بعض نماذجها في مجموعته القصصية "حزام الغولة" (1990) وروايته "اللغة" (1993)، التي تتخذ من اعتصام الإسلاميين في

ساحة أول مايو في جوان 1991، واستيلائهم على قسم الاستعجالات في مستشفى مصطفى، بعد صدامهم مع قوات الأمن، محاررا لها.

والحقيقة أن نقد الدين كما يتجلى في فهمه وتطبيقه في الواقع، وكذا نقد رموزه ممثلة في الزعامات الدينية التقليدية، ليس جديدا في كتابات الروائيين الجزائريين باللغة الفرنسية، بدء برواية "بولنوار" لرشيد زناتي في الثلاثينيات، مروراً بـ "المؤذن" لمراد بوربون في الستينيات، و"اختراع الصحراء" للطاهر جاووت في الثمانينيات، ولكن أسلوب النقد هو الذي يتغير حسب وجهة نظر الكاتب وعقيدته السياسية، وأيضا حسب حركة الظواهر الاجتماعية، والتغيرات السياسية التي يتجلى فيها الدين.

وقبل أن ننهي الحديث عن التطور الذي عرفه أدب الجزائريين باللغة الفرنسية، لابد لنا أن نشير إلى أسماء كتّاب جدد من أصل جزائري برزوا في فرنسا خلال العقدين الأخيرين وهم في معظمهم من أبناء العمال المهاجرين، ممن أصبحوا يعرفون باسم "البور" أو "الجيل الثاني" من المهاجرين الجزائريين، أمثال زليخا بوقرط وعلي عالم، ومهدي شارف، وأ. زيتوني، وجانيت لشمط، وأكلي تاجر، ومحمد كنزي، وناصر كتان، وغيرهم، فبحكم أصولهم الجزائرية كثيرا ما يتناولون موضوعات لها صلة من قريب أو بعيد بالجزائر والجزائريين، حتى وإن تعلقت تلك الموضوعات بجوانب من صميم الحياة اليومية في المجتمع الفرنسي المعاصر وهم في نظرنا، يشكلون بوجه من الوجوه، امتدادا وتطورا طبيعيا لأدب الجزائريين المخضرمين باللغة الفرنسية، لاسيما ما تعلق منه بالهجرة الجزائرية في فرنسا، حتى وإن أنكروا هم هذا الامتداد ورفضوه بقوة، مع فارق في المستوى الفني لهذا الأدب إذ يحكم عليه بعض الباحثين بأنه أدب متمرد، لا يعترف بالقواعد الفنية، ولا حتى بالقواعد اللغوية.

ومهما يكن مستوى هذا الأدب، ومهما يكن رفض أو قبول كتاب هذا الجيل الانتماء إلى المخضرمين من الكتاب الجزائريين بالفرنسية، فإنه من السهل على الملاحظ المحايد إدراك الصلة التي تربط بين أدب هؤلاء وأولئك، في العديد من الأوجه، وأبرزها الشخصيات التي يصورونها والأبطال الذين يصنعون أحداث رواياتهم. ومن هنا نطرح سؤالا نراه على قدر كبير من الأهمية فيما يخص التوجه الذي يمكن يتوجه فيه الأدب باللغة الفرنسية مستقبلا في الجزائر، وهو ألا يكون أدب "البور" هذا مؤشرا قويا نحو التطور الطبيعي لأدب الجزائريين المكتوب بالفرنسية؟ أعني الاندماج شيئا فشيئا، في المجتمع الفرنسي، وفي الأدب الفرنسي ليصبح في يوم من الأيام جزء لا يتجزأ من الأدب الفرنسي؟ وما يدفعنا إلى هذا التساؤل الوجهه في نظرنا، هو ما ذهب إليه أحد الباحثين المرموقين في الأدب والثقافة المغاربية بالفرنسية، وهو "ألبير ميمي" الذي قال ((إن أدب المستعمرين باللغات الأوروبية، محكوم عليه- فيما يبدو- بالموت في سن مبكرة. وهو يعني أنه أدب ارتبط ميلاده وتطوره بالظاهرة الاستعمارية، وكذلك سيكون موته مرتبطا بزوال الظاهرة.

هذا من حيث التطور الذي عرفه هذا الأدب في مراحلته المختلفة، التي يمكن أن نميز فيها أربع مراحل رئيسية، مرحلة ما بين الحربين، وهي مرحلة البداية التي كانت متعثرة فنيا ومتذبذبة سياسيا، والمرحلة التي تمتد ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وقيام ثورة التحرير في فاتح نوفمبر 1954، وهي مرحلة التملل والقلق وترقب ما سيحدث، حيث كانت كل المؤشرات في هذه الفترة تنبئ بأن شيئا ما سوف يحدث، ومرحلة الثورة التي لم يكن فيها أمام الكتاب أي مجال للتردد أو الحياد، بمواقفهم السياسية، وبأعمالهم الفنية، ومرحلة ما بعد الاستقلال التي عرفت تنوعا كبيرا في المواقف والرؤى حول مختلف القضايا الاجتماعية، والتوجهات السياسية والفكرية، وحول القضايا الفنية أيضا، كما عرفت تأثرا بالأحداث السياسية الكبيرة التي مرت بها الجزائر، وخاصة انقلاب 19 يونيو 1965، وأحداث أكتوبر 1988.

أما من حيث التطور الكمي لهذا الأدب، وبقطع النظر عن نوعية الإنتاج المنشور من حيث القيمة الفنية، على أساس أن النشر في حد ذاته لا يعد مقياسا للجودة، فنلاحظ أنه ظهر منه في الفترة ما بين الحربين العالميتين عدد محدود من العناوين لا تزيد في مجموعها عن عشرة ما بين أعمال روائية وشعرية، ثم راح العدد يزداد باضطراد بحيث نشر- حسب إحصاء للسيد جان ديغو- في الفترة ما بين سنة 1945 و1962 ما مقداره 86 عملا موزعا على النحو التالي: 32 رواية، و40 مجموعة شعرية، و12 مسرحية ومجموعتان قصصيتان، وفي فترة مساوية تقريبا للفترة المذكورة، أي ما بين 1962 و1978، نشر 184 عملا موزعا كالتالي: 44 رواية، و108 مجموعة

شعرية، و20 مسرحية، و12مجموعة قصصية، نشر حوالي ثلث العدد الإجمالي المذكور منه في الجزائر، (ونشر الباقي في فرنسا أساسا، وفي بلجيكا، وكندا، وسويسرا بنسب متفاوتة).

مواضيع للعروض الفردية
مقياس الأدب الجزائري بلغات أخرى
(ماستر 2- ادجب جزائري)

فيما يلي قائمة من الأعمال الأدبية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية والتي تمت ترجمتها إلى العربية. يطلب من كل طالب إنجاز ورقة بحث بسيطة فيها ملخص لأحد هذه الكتب. (من 4 إلى 6 صفحات كافية)

محمد ديب:

الدار الكبيرة – المنسج- الحريق – من يذكر البحر- شرفات أورصول- ثلاثية الشمال- هابيل... الخ

مولود فرعون:

الدروب الوعرة- نجل الفقير- اليوميات- الأرض – الذكرى.

كاتب ياسين:

نجمة – موتى بلا كفن- دائرة الأحقاد- المضلع النجمي (- فلسطين المخدوعة- حرب الألف عام - الرجل ذو النعل المطاطي

مالك حداد:

رصيف الأزهار لا يجيب- التلميذ والدرس – سأهيك غزالة

رشيد ميموني:

- الربيع لن يكون إلا أكثر جمالا - النهر المحول - سلام للعيش – طومبيزا - شرف القبيلة - حزام الغولة- عقوبة للعيش – اللعنة.

الطاهر جاووت:

الباحثون عن العظام – العسس- المسلوب.

بوعلام صنصال:

شارع داروين – قسم البرابرة – 2084 أو نهاية العالم – حراقة

رشيد بوجدر:

التطليق- الإنكار – التفكك – ألف عام وعام من الحنين – الرعن – فوضى الأشياء- ضربة جزاء – ربيع – تيميمون

نينا بوراوي:

الناظرة الممنوعة - القبضة الميتة - العمر المجروح - يوم الزلزال - المسترجلة - الحياة السعيدة - الدمية الجميلة - افكاري السيئة.

كمال داود:

ميرصو تحقيق مضاد – زابور

ياسمين خضرا:

خرفان الرب - بماذا تحلم الذئاب - الكاتب, - دجال الكلمات, - سنونو كابول - زهرة البليدة - صفارات إنذار بغداد (ترجمت "ارواح الجحيم") -- مترجمة فضل الليل على النهار- "آلهة الشدائد"- "المعادلة الإفريقية", - الملائكة تموت من جراحا- ماذا تنتظر القردة- ليلة الرئيس الأخيرة - ليس لها فانا ربّ يحميها- فضل السراب على الواحة... الخ الخ

